الفصل الثالث

النواحى الجسمية

لا يجوز أن نغفل ما للتكوين الجسمى سواء من حيث التشريح أو وظائف الأعضاء أو الصحة العامة من أثر فى الشخصية بوجه عام . فقد أثبتت الأبحاث صحة المثل القائل : « إن العقل السليم فى الجسم السليم » .

وبعض الباحثين فى الشخصية يهمل أحيانا هذا الركن الهام من أركان الشخصية برغم ارتباطه الوثيق بالنواحى الانفعالية والمزاجية التى تعتمد فى أساسها على التركيب الكيمائى والغددى والدموى ، وبرغم تأثر النواحى الخلقية بكل ذلك . ولعل السبب فى إهمال هذه الناحية لمن يدرسون سيكلوجية الشخصية وقوعها فى دائرة علوم التشريح والطب ، ووضوح أهميتها لدرجة تجعلها أمراً بديهياً مسلما به . وطبيعى أن يكون لهذه العوامل تأثير واضح فى كثير من الحالات المرضية كما فى الأمراض التى تنتج من إصابات الجهاز العصبى أو اضطراب وظائفه ؛ ويقل وضوح تأثير هذه العوامل

عند دراستنا للشخصيات العادية السليمة حيث يقل نسبياً تأثير الاختلافات الفردية فى هذه النواحى الجسمية .

ولكن هذا لا يمنع من ذكر بعض العوامل الجسمية على سبيل المثال لنعرف كيفية تأثر الشخصية بها ومن ذلك ما يأتى :—

١ — النمو الجسمى .

٢ — حالة الغدد الصماء .

٣ — المظاهر الحركية .

٤ — العاهات والأمراض الجسمية .

النمو الجسمى :

ويتبعه حالة الجسم من حيث القامة والهيئة وتوافق النمو الجسمى مع النمو العقلى والاجتماعى . فكثيراً ما نلجأ فى أحكامنا على الشخصية إلى معرفة العمر الزمنى الذى أمكن للشخص فيه أن يمشى أو يتكلم ، أو التاريخ الذى تم عنده البلوغ والنضوج الجنسى ؛ فمثل هذه النواحى من مظاهر النمو الجسمى تلقى كثيراً من الضوء على سمات الشخصية التى يراد بحثها . وهناك علامات جسمية خاصة فى أجزاء مختلفة من الجسم يمكن بها أن نعرف العمر التشريحى للشخص (Anatomical age) كمعرفة السن الذى تحولت فيه الغضاريف إلى عظام في منطقة الرسغ مثلا . . . وهكذا .

أثر إفرازات الغدد الصماء فى الشخصية : (Endocrine glands)

وليس لهذه الغدد قنوات وإنما تصب إفرازاتها فى الدم مباشرة . ولها تأثير كبير على النمو الجسمى والحركى والتغير الانفعالى وما يتركه ذلك فى اتزان الشخصية أو انحرافها من آثار .

غدة الأدرنالين : (Adrenal) أو الغدة فوق الكلية : وتفرز أنواعا من الهورمونات لها أثرها فى مظاهر الحياة الانفعالية فى الشخصية ، وما يصاحب الانفعال من تغيرات جسمية ذات قيمة بيولوجية تساعد على مواجهة المواقف والأخطار .

وعلى تنظيم وظيفة هذه الغدة وغيرها من الغدد بتأثير الجهاز العصبى السمباثوى والباراسمباثوى يتوقف استمرار أو انتهاء الآثار الانفعالية التى بها تحدث الحالات المزاجية غير الثابتة التى تسمى (Moods) وما يتبعها من تغيرات دورية بين الهبوط والنشاط ، أو بين التفاؤل والتشاؤم ، أو الشعور بالسرور والشعور بالبؤس والحزن ... وهكذا .

الغدة الدرقية : (Thyroid) ومكانها على جانبى القصبة الهوائية عند الحنجرة ، وإفرازاتها تؤثر على تنظيم بناء خلايا الجسم ، ولها إذن تأثير على سرعة النمو والنضوج عند المشى أو الكلام .. وقد يقل إفرازها بدرجة تنتج لنا نوعا خاصاً من الشخصية التى تتميز

بالخمول وضعف الحيوية وهبوط المستوى العقلى . . ومن الأمثلة لذلك حالات الأطفال المصابين فى طفولتهم بضمور هذه الغدة أو ضعفها لدرجة يصل بها مستواهم العقلى إلى درجة تجعلهم من طائفة ضعاف العقول . . ويعرف هذا النوع من الضعف العقلى بالكريتنزم (Cretinism) . ومن الممكن علاج هذا النوع من الضعف العقلى طبيا إذا اكتشفت الحالة فى وقت مبكر .

أما إذا زاد إفراز هذه الغدة عن الحد الضرورى فإن الشخصية تتميز بالقلق والاضطراب، وعدم الثبات وسرعة الاستثارة ، وصفات الشخصية « العصبية » وما يتبع ذلك من نحول وخفة فى الوزن .

الغدة النخامية : (Pituitary) ومكانها فى قاع المخ وتعتبر منظمة ومحركة لباقى الغدد حيث نجد لإفرازاتها آثاراً عليها جميعا . فلها هورمونات تؤثر فى النمو وطول القامة أو قصرها ، وإفرازات تتعادل مع إفرازات الغدد التناسلية فتؤثر على النضوج الجنسى ، وإفرازات تؤثر فى بناء أنسجة الجسم فترتبط بذلك مع الغدة الدرقية . . وهكذا . ومن أنواع الشخصية الظاهرة التى يدخل فيها أثر هذه الغدة . طوال القامة بسبب نمو العظام ، أو من يكونون على درجة كبيرة من قصر القامة مع السمنة المفرطة المصحوبة بالضعف الجنسى وتوزيع الدهن على أجزاء معينة من الجسم . . وهكذا . .

الغدد التناسلية : (Sex) وهى المسئولة عن التحكم فى نضوج وعمل الأجهزة التناسلية ، ومظاهر الرجولة أو الأنوثة وعلاماتها التى تؤثر تأثيراً ظاهراً فى نوع الشخصية . وإلى نشاط هذه الغدد وإفرازاتها يرجع وجود صفات الأنوثة التى قد تصل إلى درجة كبيرة من التخنث عند بعض الذكور ؛ ووجود صفات الرجولة التى تصل أحيانا لدرجة ظاهرة فى بعض الإناث ؛ وما يصاحب ذلك من أثر فى طابع الشخصية العام وأسلوبها فى الحياة .

وقد يحدث عن اضطراب إفرازات هذه الغدد حدوث البلوغ مبكراً وقبل الأوان ، ويكون ذلك فى الغالب بسبب الزيادة المفرطة لإفرازات هذه الغدد المصحوب بضمور أو ضعف فى إفرازات الغدد الأخرى بحيث لا تتوازن إفرازاتها ؛ وطبيعى أن الشخصية فى هذه الحالة تتأثر فى جملتها بسبب عدم تناسب النمو الجنسى والانفعالى مع النمو الجسمى ، وما قد يؤدى إليه ذلك من إشباع الميل الجنسى بطرق غير مشروعة ؛ ويقال إن هناك حالات حدث فيها البلوغ عند سن السابعة . وحالات حدث فيها البلوغ عند سن الرابعة ! ! وعلى النقيض من ذلك قد يحدث أن يتأخر موعد البلوغ عن أوانه المعتاد بسبب عدم كفاية الإفرازات الداخلية أو هورمونات الغدد التناسلية ، وطبيعى أن يبقى الشخص رغم كبر

سنه متصفاً بصفات فيها مظاهر الطفولية ، فتجد هذا النوع من الرجال صغاراً فى تصرفاتهم ، ولا يستطيعون بسهولة أن يكيفوا أنفسهم فى الوسط المحيط بهم حيث تتغير النظرة إليهم لما يبدو عليهم غالبا من صفات أقرب إلى الأنوثة منها إلى الرجولة . ويلاحظ فى مثل هذه الحالات أن غدتى الطفولة وهما الغدة التيموسية (Thymus) والغدة الصنوبرية (Pineal) تظلان فى حالة نشاط مستمر ، إذ أن حدوث البلوغ يصحبه عادة ضمور هاتين الغدتين ، لأن عملهما مضاد لعمل الغدد التناسلية .

ويجب أن نضع فى أذهاننا عند بحث آثار الغدد الصماء على الشخصية أن نشاط الغدد جميعها متداخل ، وأن أى أعراض من التى سبق ذكرها يمكن أن ترجع لأكثر من غدة من الغدد السابقة ، ولهذا فإن الحكم النهائى على نشاط هذه الغدد وأثرها يجب أن يترك للإخصائيين .

أثر المظاهر الحركية فى الشخصية :

تتوقف هذه المظاهر الحركية على عوامل جسمية وعوامل عقلية فى آن واحد ؛ فسرعة الحركة أو بطؤها والاندفاع أو القدرة على التحكم فى الحركات ، والتوافق الحركى سواء فى المشى أو الكتابة أو القيام بأعمال يدوية تحتاج لمهارات خاصة ، كلها تتوقف على ما يتكون بين

الجهاز العصبي والعضلي و بين عمليات الإحساس والإدراك والانتباه من ارتباطات، وما يحدث للشخص من تغيرات انفعالية ومزاجية .

وللنواحي الحركية أهمية كبيرة في الحكم على الشخصية لأنها من العوامل الظاهرة الممكن ملاحظتها بوضوح ، ولهذا يقال أحيانا إن من الممكن أن نميز نوع شخصية الناس من حركاتهم وكلامهم وإشاراتهم وطريقة نومهم أو جلوسهم وغير ذلك من المظاهر الحركية؛ فالشخص المضطرب الانفعال المتغير المزاج يكون مضطرباً في حركاته ومرتبكا في مشيته وطريقة كلامه ، والشخص الهادىء المتزن نجده متزنا في مشيته وحديثه وحركاته . وهكذا . . . وفي بعض الأمراض العقلية تتخذ الأعراض الحركية مقياساً مساعداً لتشخيص الحالة المرضية ، ومن أمثلة ذلك الحركات النمطية والحركات العنادية أو الجمود الحركي في أوضاع حركية معينة بدون سبب مفهوم ، وغير ذلك ، كما في المرض العقلي المسمى « بالفصام الكتاتوني » (Catatonic Schis ophrenja).

أثر العاهات والأمراض الجسمية في الشخصية :

العاهات من أبرز العوامل التي تميز صاحبها في شخصيته تبعا لنوع العاهة وما تحدثه من شعور بالنقص إزاء الغير ، و بحسب ما يحدث بسببها أحيانا من تقليل الفرص أمام الشخص، سواء من حيث كسب الخبرة الحسية كما في عاهات الحواس ، أو من حيث الانتقال

والحركة كما فى عاهات الأطراف . . . وغنى عن الذكر ما تحدثه العاهات الناتجة من حوادث الإصابة فى المخ أو أى جزء آخر من أجزاء الجهاز العصبى من شذوذ وتأثير بالغ فى الشخصية عموما .

ولا يفوتنا أن نشير إلى ما قد تحدثه بعض العاهات من أثر تعويضى حيث تبرز فى الشخصية نواح تساعد صاحبها على النجاح أو الظهور مما ينطبق عليه المثل القائل « كل ذى عاهة جبار » .

أما الأمراض وخصوصاً المزمنة منها فأثرها قد يكون أبعد من تأثير العاهات فى تكوين الشخصية ؛ إذ أن الأمراض عادة تتناول الجسم كله ، وتؤثر على الشخصية بأجمعها من حيث استقلال الطاقة الجسمية والعقلية وتوجيهها . ويضاف إلى ذلك أن بعض الأمراض لا يكون ظاهراً فيشعر به الغير ؛ ولذا لا يستدر الشفقة أو العطف من المحيطين بالشخص كما يحدث فى حالات العاهات الظاهرة ، ولذلك فإن تأثير الأمراض فى تكوين الشخصية لا يقل فى أهميته عن أى عامل آخر .

ومن كل هذا يتبين أن الحكم الصحيح على الشخصية يجب أن يشمل النواحى الجسمية خصوصاً فى دراسة الشخصيات المرضية أو الشاذة ؛ فكثيراً ما تلقى هذه العوامل الجسمية الضوء على النواحى النفسية والعقلية للشخصية .